كلمة الله في القرآن

دراسة موضوعية

إعداد

د. عبد الوهاب محمد عبد الله سليم

مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

فرع كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية(الديدامون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله وجماله وله الشكر علي كمال إنعامه وعظيم إحسانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، والصلاة والسلام علي الرحمة المهداة والنعمة المسداة، سيدنا محمد وعلي آله وصحبه ومن والاه.

وبعد

فإن من ينظر إلي عنوان هذا البحث قد يسأل ما المراد به وما فائدته وأهميته؟

أقول إن فائدة هذا البحث تتركز في نقطتين.

الأولي: أنه دراسة قرآنية لكتاب الله عز وجل تبرز لنا موضوعاً جديداً من موضوعات القرآن التي لا تحصي، هذا الموضوع هو كلمة الله في القرآن، وخاصة أن هذه العبارة جاءت في القرآن الكريم في مواضع متعددة فهي جديرة بالدراسة والبحث وإبرازها في موضوع واحد ليطلع عليه الراغبون في الدراسات القرآنية.

الثانية: أن يعرف الإنسان المسلم حقيقة كلمة الله التي يسمعها ويقرأها في القرآن الكريم، ليعرف أنها كلمة إلهية متصفة بصفات الكمال التي تليق بها، فهي كلمة أزلية قديمة باقية، لا تتبدل ولا تتغير ، فإذا ما أعطي الله كلمة، فإنها تسير في مسارها لا يعوقها عائق، ولا يمنع من تحقيقها مانع، ولا تقف دونها الأسباب، فإنها تمضي في طريقها ولو تبدلت القوانين الثابتة، وتغيرت النواميس الراسخة.

فإذا ما عرف المسلم ذلك اعتز بنفسه، ووقف ثابت القدمين، رافع الرأس، لأنه في جوار الله الذي يملك السماوات والأرض ، والذي يقول للشيء كن فيكون، فما أحوجنا إلي معرفة هذه الكلمة. كي نعمل لها، ومن أجلها، حتى نسترد عافيتنا، ونأخذ مكاننا، وتكون كلمتنا هي العليا.

والله أسأل أن يوفق المسلمين إلي ما يحبه ويرضاه.

محتويات البحث

يحتوى البحث على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة وإليك بيان ذلك:

أولا المقدمة: وتشمل أهمية البحث ومحتوياته

ثانيا التمهيد: ويشمل الكلمة فى اللغة والقرآن الكريم

ثالثاً المبحث الأول: صفات كلمة الله فى القرآن الكريم وهى:

١- كلمة أزليه ٢- كلمة باقية ٣- كلمة تامة

٤- كلمة صدق

٥- كلمة عدل ٦- كلمة لا تبدل ولا تتغير

٧- هى الكلمة العليا.

رابعا المبحث الثانى: مفهوم كلمة الله فى القرآن الكريم ويشمل ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: كلمة الله تمثل وحى الله إلى الرسل وذلك كما يلي:

١- الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه

٢- الكلمات التي ابتلي الله بها إبراهيم عليه السلام

٣- كلام الله لموسي عليه السلام

٤- كلام الله المنزل علي سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم(القرآن الكريم)

المطلب الثاني: كلمة الله تمثل كمال قدرة الله وعجائب صنعه ويشمل ما يلي:

١- خلق آدم عليه السلام

٢- خلق عيسى عليه السلام

٣- ولادة إسحاق ويحي

٤- جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم

المطلب الثالث: كلمة الله تمثل قدر الله السابق وقضاءه النافذ ويشمل ما يلى:

١- سبق الكلمة بنصر المؤمنين

٢- سبق الكلمة بإمهاله الكافرين

٣- سبق الكلمة بشقاوة الأشقياء وسعادة السعداء

خامسا : الخاتمة : وفيها وصايا البحث.

سادسا : الفهارس .

هذا وقد اعتمدت على كتب التفسير الأصيلة فى تناول هذا البحث. سائلاً المولي سبحانه وتعالي أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا جميعاً والله يهدينا إلي سواء السبيل.

التمهيد

الكلمة في اللغة

الكلمة فيها ثلاث لغات ففي الصحاح كَلِمَةٌ وكِلْمَةٌ وكَلْمَةٌ (1)

والكلمة تطلق في اللغة علي الحرف الواحد من حروف الهجاء إذا كان يؤدي إلي معني.

جاء في لسان العرب: الكلمة تقع علي الحرف الواحد من حروف الهجاء، كحرف العطف، ولام الإبتداء، وهمزة الإستفهام وغير ذلك. أهـ (2)

وتطلق الكلمة علي اللفظة الواحدة المكونه من عدة حروف ووضعت لمعني، وكذلك علي الجملة التامة المكونة من عدة ألفاظ. ففي المعجم الوجيز. الكلمة تطلق علي اللفظة الواحدة وعند النحاة اللفظة الدالة علي معني مفرد بالوضع. والكلمة: الجملة أو العبارة التامة المعني، كما في قولهم لا إله إلا الله كلمة التوحيد.أ هـ (3)

وتطلق الكلمة علي الجُمل العديدة التي يتألف منها خطبة كاملة أو قصيدة بأسرها. يقال تكلم فلان كلمة بليغة ويقصد بها الخطبة أو القصيدة.

ففي الصحاح: الكلمة: القصيدة بطولها. وفي المعجم يقال كلمة بليغة وفي اللسان. الكلمة تقع علي قصيدة بكاملها وخطبة بأسرها، يقال: قال الشاعر في كلمته أي قصيدته. أ هـ (4)

من خلال ذلك يمكن بنا أن نعرف الكلمة بأنها كل منطوق أو مُتكَلم يؤدي إلي معني تام سواء أكان حرفاً أو لفظة أو جملة أو عدة جمل.

---

(1) مختار الصحاح ص ٥٧٧ مادة كلم .

(2) لسان العرب لإبن منظور مادة كلم .

(3) المعجم الوجيز صـ ٥٤٠ ــ مادة كلم .

(4) الصحاح صـ ٥٧٧، المعجم الوجيز صـ ٥٤٠- اللسان- جـ ٥ صـ ٤٣١.

كلمة الله في القرآن الكريم

جاءت هذه العبارة– كلمة الله أو كلمة ربك– في القرآن الكريم ما يقرب من خمس وثلاثين مرة (١) وكلها تدور حول أمرين:

الأمر الأول: هو بيان خصائص هذه الكلمة وصفاتها من حيث إنها كلمة إلهية متصفة بكل صفات الكمال التي تليق بها، فهي كلمة تامة، وكلمة صدق وعدل و لا تتبدل ولا تتغير قال تعالي ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) وهي كلمة أزلية قديمة قال تعالي ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ (٣) وهي كلمة باقية لا تتناهي قال تعالي ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (٤) وهي الكلمة العليا. قال تعالي "وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا "(٥) وغير ذلك من الأوصاف.

الأمر الثاني: وهو بيان مفهوم هذه الكلمة أو المراد بها وذلك من وجوه:

الوجه الأول: تذكر كلمة الله ويراد بها وحي الله إلي الرسل كالقرآن الكريم قال تعالي ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ (٦) أو الكلمات التي تلقاها آدم من ربه قال تعالي ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٧) أو الكلمات التي ابتلي الله بها إبراهيم عليه السلام قال تعالي ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ (٨) أو الكلام الذي كلم الله به موسي عليه السلام قال تعالي ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (٩)

الوجه الثاني: تذكر كلمة الله ويراد بها بيان كمال قدرة الله سبحانه وتعالي وعجائب صنعه في خلقه للأشياء دون حاجة للأسباب، وذلك كخلقه آدم

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة كلم ص ٧٨٧، ٧٨٨ ط دار الحديث القاهرة بحاشية المصحف الشريف للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٥

(٣) سورة يونس : الآية ١٩

(٤) سورة الكهف الآية ١٠٩

(٥) سورة التوبة الآية ٤٠

(٦) سورة الكهف الآية ٢٧

(٧)البقرة الآية ٣٧

(٨) البقرة الآية ١٢٤

(٩) النساء الآية ١٦٤

عليه السلام من تراب بدون أب و أم قال تعالي " إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ"(١٠) ومثل خلقه لعيسي عليه السلام بدون أب قال تعالي ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابن مريم ﴾ (٢)

وكذلك ولادة إسحاق ويحي عليهما السلام مع تعطل أسباب ولادتهما فكانت ولادتهما بكلمة من الله. اقرأ قول الله تعالي في البشارة بإسحاق: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ *فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) وقوله تعالي في البشارة بيحي ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ (٤). وكذلك نزع خاصية الإحراق للنار التي ألقي فيها إبراهيم عليه السلام قال تعالي " قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ "(٥) فنري في كل هذه الأمور قد تعطلت القوانين والأسباب بكلمة من الله.

الوجه الثالث: تذكر الكلمة ويراد بها حكم الله السابق، وقدره الأزلي وقضاؤه النافذ، وسننه في خلقه، وذلك كحُكْمه سبحانه وتعالي بالنصر للمؤمنين قال تعالي ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٦). وكذلك حُكْمُهُ سبحانه وتعالي بإمهال الكافرين من أمة محمد صلي الله عليه وسلم وعدم استئصالهم وتأجيل عقوبتهم إلي يوم القيامة قال تعالي ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٧). وتذكر الكلمة ويراد بها قدره السابق بشقاوة الأشقياء وسعادة السعداء قال تعالي ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ

(١٠)سورة آل عمران الآية ٥٩

(٢) سورة آل عمران الآية ٤٥

(٣) سورة الذاريات من الآية ٢٨–٣٠

(٤) سورة مريم : ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٦٩

(٦) سورة الصافات الآيـات ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣.

(٧) سورة يونس الآية ١٩

كلمتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) وغير ذلك من الآيات.

وبعد هذا الاستقصاء للآيات القرآنية التي تتحدث عن هذا الموضوع يمكن لنا أن نتناوله في مبحثين:

المبحث الأول: صفات كلمة الله في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: مفهوم كلمة الله في القرآن الكريم.

(١) سورة يونس الآية ٣٣

المبحث الأول

صفات كلمة الله في القرآن

لو نظرنا إلي كلمة الله في القرآن الكريم لوجدنا لها من الخصائص والصفات التي ما يميزها عن كلمة المخلوقين من هذه الصفات ما يلي

١- أنها أزلية قديمة:

قال تعالي:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢)

وقال سبحانه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (٣)

وقال عز وجل ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (٤)

وقال تبارك وتعالي ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (٥)

وقال جل وعلا ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (٦)

(٢) سورة يونس الآية ١٩

(٣) سورة طه الآية ١٢٩

(٤) سورة فصلت الآية ٤٥

(٥) سورة الشورى الآية ١٤

(٦) سورة الصافات من الآية ١٧١-١٧٣

فالآيات الكريمات تشير إلي أن كلمة الله أزلية قديمة، فهي من كلامه سبحانه وتعالي القديم، الثابت في حقه عز وجل، والآيات الكريمات توضح لنا أنه لولا هذه الكلمة السابقة أزلاً من الله جلت حكمته التي حكمت بتأجيل القضاء بين هذه الأمة – أمه محمد صلي الله عليه وسلم – إلي يوم القيامة، لحدث ذلك في الدنيا، وتميز الحق من المبطل، ولقضي علي المبطلين بعذاب الاستئصال، الذي يستأصل شأفتهم، ويقطع دابرهم، ولكن حكمته سبحانه وتعالي اقتضت إرجاءهم حتى يقيم الحجة عليهم، أو قد يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً.

وكذلك توضح الآيات من سورة الصافات، أن الله سبحانه وتعالي قد قال كلمة سابقة، وهي أنه عز وجل ينصر رسله وأتباعهم ما تحققت فيهم معني الجندية لله تعالي فهذه الكلمة تمثل قدره السابق وحكمة النافذ.

قال الشيخ الألوسي – رحمه الله– حول قوله تعالي ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾. وهي كلمة القضاء بتأخير العذاب إلي الأجل المعلوم علي حسب الحكمة الداعية إلي ذلك. أهـ (١)

وقال الحافظ ابن كثير – رحمة الله– في تفسيره لقوله تعالي " وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ". أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالي ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢) وقال عز وجل ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٣) أهـ (٤) فالمقصود بالكتاب الأول هو اللوح المحفوظ وهذا يدل علي أن هذه الكلمة كلمة أزلية قديمة بقدم المتكلم سبحانه وتعالي.

٢- أنها باقية لا نهاية لها

قال تعالي ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ

(١) روح المعاني الألوسي جـ٦ صـ٣٤٢

(٢) سورة المجادلة الآية ٢١

(٣) سورة غافر الآية ٥١

(٤) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير جـ٤ صـ٢٤

مَدَداً﴾(١) وقال عز وجل﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

الآيتان تشيران إلي أن كلمات الله كلماتٌ أزلية قديمة لا أول لها، فهي باقية لا آخر لها، وهي لا تتناهي ولو أردنا حصرها في كتاب. فلن نقدر علي ذلك، ولو أخذنا من كل أشجار الأرض أقلاماً ومن بحارها مداداً لنفد كل ذلك وبقيت كلمات الله، فكيف يحصي المتناهي ما لا نهاية له.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره لقوله تعالي" قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي- الآية- يقول تعالي قل يا محمد لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالات لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك، ولو جئنا بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جرا بحور تمده ويكتب بها لما نفدت كلمات الله. أهـ(٣)

وقال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – تقرير الكلام أن البحار كيفما فرضت في الاتساع والعظمة فهي متناهية، ومعلومات الله غير متناهية، والمتناهي لا يفي ألبتة بغير المتناهي. أهـ(٤)

وتعبير القرآن الكريم بقوله (شجرة) في قوله تعالي ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام.. بالإفراد دون شجر، يدل علي أنه لم يبق شجرة من أشجار الأرض إلا وجعلت قلما.

قال الإمام الزمخشري: فإن قلت إنه سبحانه وتعالي قال (شجرة) علي التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر، قلت أريد تفصيل الشجر شجرة شجرة حتى لا يبقي من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بريت أقلاما.أهـ(٥)

فانظر إلي القرآن الكريم كيف يصور لنا كلمات الله وأنه لا يستطيع أحد حصرها، ولو أخذ كل فرع وكل غصن وكل عود من كل شجرة من أشجار الأرض وصنع منها قلماً وجعل كل مياه

(١) سورة الكهف ١٠٩

(٢) سورة لقمان ٢٧

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ١٠٨

(٤) تفسير الفخر الرازي – مفاتيح الغيب جـ ٢١ صـ ١٥٩

(٥) تفسير الكشاف – الزمخشري جـ ٣ صـ ٥٣٠ ط/ مكتبة مصر

الأرض بمحيطاها وبحارها وأنهاراً مداداً لفني كل ذلك وبقيت كلمات الله .

والقرآن الكريم في هاتين الآيتين يضرب لنا المثل لتتضح الصورة في الذهن وليس الأمر علي حقيقته لأن الحقيقة أكبر من ذلك وعلم الله لا حدود له.

يقول صاحب الظلال رحمة الله- السياق يعرض هم البحر بسعته وغزارته في صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة علي علمه، فإذا البحر ينفد، وكلمات الله لا تنفد، ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله، ثم إذا البحر الآخر ينفد، وكلمات الله تنتظر المداد، وبهذا التصوير المحسوس، والحركة المجسمة يقرب إلي التصوير البشري المحدود معني غير المحدود ونسبة المحدود إليها مهما عظم واتسع. والبحر في هذا المثال يمثل علم الإنسان الذي يظنه واسعاً غزيراً، وهو- علي سعته وغزارته- محدود، وكلمات الله تمثل العلم الإلهي، الذي لا حدود له، والذي لا يدرك البشر نهايته، بل لا يستطيعون تلقيه وتسجيله، فضلاً عن محاكاته.

ولقد يدرك البشر الغرور بما يكشفونه من أسرار في أنفسهم وفي الآفاق فتأخذهم نشوة الظفر العلمي فيحسبون أنهم علموا كل شئ، أو أنهم في الطريق.

ولكن المجهول يواجههم بآفاقه المترامية التي لا حدود لها، فإذا هم ما يزالون علي خطوات من الشاطئ، والخضم أمامهم أبعد من الأفق الذي تدركه أبصارهم.

إن ما يطيق الإنسان تلقيه وتسجيله من علم الله ضئيل قليل، لأنه يمثل نسبة المحدود إلي غير المحدود، فليعلم الإنسان ما يعلم، وليكشف من أسرار هذا الوجود ما يكشف، ولكن ليطامن من غروره العلمي، فسيظل أقصي ما يبلغه علمه أن يكون البحر مداداً في يده، وسينفد البحر وكلمات الله لم تنفد، ولو أمده الله ببحر مثله فسينتهي من بين يديه، وكلمات الله ليست إلي نفاد. أهـ(١)

فما أعظم هذه الكلمات وما أجلها فهي كلمات الله، وهل يستطيع المخلوق الضعيف مهما أوتي من علم ومن قوة،

(١) في ظلال القرآن- سيد قطب جـ ٤ صـ ٢٢٩٦، ٢٢٩٧ بتصرف ط دار الشروق للشيخ سيد قطب المفكر المصري ولد بأسيوط سنة ١٩٠٦ وتوفي سنة ١٩٦٦م.

أن يحصي كلمات الخالق جل وعلا، فهو الباقي الذي لا نهاية له، وكلماته من صفاته، وصفاته باقية لا نهاية لها.

قال ابن الجوزي وإنما لم تنفد كلمات الله لأن كلامه صفة من صفات ذاته، ولا يتطرق إلي ذاته النفاد.أهـ[1]

فلا يقدر بشر أن يحيط علماً بكلمات الله مهما أوتي من أدوات، لأنه يفني وتفني أدواته وكلمات الله هي الباقية.

٣- أنها كلمة تامة

قال تعالي ﴿و تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2]

وقال عز وجل ﴿و تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾[3]

وقال سبحانه ﴿و تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[4]

هذه الآيات الكريمات تبين لنا أن كلمة الله سبحانه وتعالي موصوفة بالتمام؛

والمقصود بالتمام كما قال الراغب: تمام الشئ انتهاؤه إلي حد لا يحتاج إلي شئ خارج عنه.أهـ[5]

فإذا قال الله كلمة نُفذت ومضت إلي حيث أراد، لا يعتريها نقص، بل تتم كاملة، فإذا وعد أمة بالنصر حق لها، وإذا أوعد أمة بالهلاك حل بها.

أو يكون المقصود بالتمام الكفاية، ومعني كلمته سبحانه وتعالي تامة: أي كافية وافية لا تحتاج إلي غيرها.

قال الإمام الفخر الرازي: في تفسير التمام وجوه:

الأول: أنها كافية وافية بكونها معجزة دالة علي صدق محمد صلي الله عليه وسلم.

الثاني: أنها كافية في بيان ما يحتاج المكلفون إليه إلي قيام الساعة عملاً وعلماً.

الثالث: أن حكم الله تعالي هو الذي حصل في الأزل، ولا يحدث بعد

(١) تفسير زاد المسير- ابن الجوزي- جـ٥ صـ١٤٩
(٢) سورة الأنعام الآية ١١٥
(٣) سورة الأعراف الآية ١٣٧
(٤) سورة هود الآية ١١٩
(٥) المفردات للراغب – مادة : تمّ

ذلك شئ، فذلك الذي حصل في الأزل هو التمام والزيادة عليه ممتنعة.أ هـ[1]

٤- أنها كلمة صدق

قال تعالي " وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً "[2]

وكلمة الله صدق لأنها من كلامه سبحانه وتعالي، فهو سبحانه منزه عن الكذب، لأن الكذب نقص والنقص محال عليه عز وجل.

قال الإمام الفخر الرازي- رحمه الله- من صفات كلمة الله كونها صدق والدليل عليه: أن الكذب نقص والنقص علي الله محال، ولا يجوز إثبات أن الكذب عليه محال بالدلائل السمعية، لأن صحة الدلائل السمعية موقوف علي أن الكذب علي الله محال، فلو أثبتنا امتناع الكذب علي الله بالدلائل السمعية لزم الدور وهو باطل. أهـ[3]

أقول إن الله سبحانه وتعالي قد ثبت له صفه الصدق بالأدلة العقلية والنقلية – السمعية- فمن الأدلة العقلية ما نقله الشيخ الآلوسي رحمه الله عن صاحب المواقف حيث قال: الاستدلال علي امتناع الكذب عليه تعالي عند أهل السنة بثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أنه نقص والنقص ممنوع إجماعاً وأيضاً فيلزم أن يكون نحن أكمل منه سبحانه في بعض الأوقات- أعني وقت صدقنا في كلامنا.

الوجه الثاني: أنه لو اتصف بالكذب سبحانه لكان كذبه قديماً إذ لا يقوم الحادث بذاته تعالي فيلزم أن يمتنع عليه الصدق ، فإن ما ثبت قدمه استحال عدمه، واللازم باطل فإنا نعلم بالضرورة أن من علم شيئاً أمكن له أن يخبر عنه علي ما هو عليه.

وهذان الوجهان يدلان علي أن الكلام النفسي الذي هو صفة قائمة بذاته تعالي يكون صادقاً.

الوجه الثالث: هو أنه قد ثبت صدق الرسول صلي الله عليه وسلم بدلالة المعجزة القاطعة فيما هو رسول فيه علي ما تبين في محله، وقد نقل عنه بالخبر المتواتر أن كلام الله تعالي صدق وأن الكذب عليه سبحانه محال.أ هـ[4]

(١) مفاتيح الغيب جـ١٣ صـ١٣٣
(٢) سورة الأنعام الآية ١١٥
(٣) مفاتيح الغيب جـ١٣ صـ١٣٣
(٤) روح المعاني- الألوسي- جـ٣ صـ١٠٣- بتصرف

وأما الدليل النقلي– السمعي– فهو قوله تعالي ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (١) وقوله سبحانه ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ (٢)

وبهذا يتضح لنا بالأدلة العقلية والنقلية أن كلامه سبحانه وتعالي كلام صدق، ويستحيل فيه الكذب لأن الكذب نقص والنقص محال في حقه عز وجل، لأنه متصف بكل صفات الكمال التي تليق بذاته المقدسة.

٥- أنها كلمة عدل

قال تعالي ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣)

يقول الإمام الفخر الرازي– رحمه الله– من صفات كلمات الله كونها عدلاً وفيه قولان:

الأول: أن كل ما حصل في القرآن نوعان: الخبر والتكليف. أما الخبر فالمراد كل ما أخبر الله عن وجوده أو عن عدمه، ويدخل فيه الخبر عن وجود ذات الله تعالي، وعن حصول صفاته أعني كونه تعالي قادراً سميعاً بصيراً ويدخل الإخبار عن صفات التقديس والتتريه كقوله ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ (٤) وكقوله ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ (٥) ويدخل فيه الخبر عن أحكام الله تعالي في الوعد، والوعيد، والثواب والعقاب، ويدخل فيه الخبر عن أحوال المتقدمين، والخبر عن الغيوب المستقبلة، فكل هذه الأقسام داخله تحت الخبر.

وأما التكليف فيدخل فيه كل أمر ونهي توجه منه سبحانه علي عبده، سواء كان ذلك العبد ملكاً أو بشراً أو جنياً أو شيطاناً، وسواء كان ذلك في شرعنا، أو في شرائع الأنبياء عليهم السلام المتقدمين، أو في شرائع الملائكة المقربين، الذين هم سكان السماوات والجنة والنار والعرش وما وراءه مما لا يعلم أحوالهم إلا الله تعالي، وإذا عرفت إنحصار مباحث القرآن في هذين القسمين فنقول ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً﴾ إن كان من باب الخير " وعدلاً" إن كان من باب التكاليف وهذا ضبط في غاية الحسن.

(١) سورة النساء الآية ٨٧

(٢) سورة النساء الآية ١٢٢

(٣) سورة الأنعام الآية١١٥

(٤) سورة الإخلاص الآية٣

(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٥

القول الثاني في تفسير قوله وعدلاً: أن كل ما أخبر الله تعالي عنه من وعد ووعيد وثواب وعقاب فهو صدق، لأنه لا بد وأن يكون واقعاً، وهو بعد وقوعه عدل، لأن أفعاله مترهه عن أن تكون موصوفة بصفته الظلمية. أهـ (١)

وبعد ما سمعنا كلام الإمام الفخر الرازي أقول: إن كلمة الله هي العدل المحض، لأنها من كلامه سبحانه المتره عن الجور والظلم، فإن كانت خبراً يخبرنا عن أحوال السابقين، وما حل بهم من عذاب بسبب كفرهم فذاك محض العدل، وإن كانت هي الوعيد بعذاب الكافرين في القيامة، فذاك أيضاً محض العدل. فقد أنذرهم الله سبحانه وتعالي عن طريق الرسل، وأقام الحجة عليهم فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

وإن كانت حكماً فهي محض العدل، إذ لا محاباة لأحد ولا تمييز لجنس ولا لون ولا دين ﴿ إنا أنزلنا إليك الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (٢)

وإن كانت تكليفاً فهي محض العدل لأنها في طوق الإنسان وسعته ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (٣) وكذلك هو التكليف الذي تنصلح به حركة الحياة، ولن ينصلح حال الأمم والعالم إلا بالرجوع إلي تكاليف الحق إلي الخلق، ولننظر إلي أحكام الإسلام التي رجع إليها الغرب في كثير من المسائل كالطلاق وغيره، وانظر إلي مبادئ الأمم المتحدة التي تدعو إلي العدل والحرية والمساواة وحقوق الإنسان وحقوق المرأة كل ذلك من المبادئ التي قررها الإسلام في تكاليفه بضوابطها، وصدق الله العظيم في قوله ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٤) فلن تسعد البشرية في دنياها وأخراها إلا بالرجوع إلي كلمة الله التي تجسد العدل الإلهي التي تقصم الجبارين وتنصف المظلومين.

٦- أنها كلمة لا تتبدل ولا تتغير

قال تعالي ﴿ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ (٥)

وقال سبحانه﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (١)

(١) تفسير مفاتيح الغيب– الرازي جـ ١٣ صـ ١٣٤

(٢) سورة النساء الآية ١٠٥

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦

(٤) سورة التوبة الآية ٣٢

(٥) سورة الأنعام الآية ٣٤

وقال عز وجل ﴿ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٢)

وقال جل وعلا ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾(٣)

هذه الآيات الكريمات تبين لنا أنه لا يستطيع أحد أن يبدل كلمات الله لأنها موصوفة بالكمال فإن كانت وحياً وقرآنا لا يستطيع أحد تحريفه قال تعالي ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٤)

وإن كانت وعداً أو وعيداً لا يستطيع أحد تبديله قال سبحانه ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(٥)

وإن كانت خبراً لا يستطيع أحد تكذيبه قال جل وعلا ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾(٦). وإن كانت حكماً لا يستطيع أحد أن يستدرك عليه قال تعالي ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٧) فهي كلمات أزلية لا تتبدل ولا تزول.

يقول الشيخ الألوسي رحمه الله حول قوله تعالي " ولا مبدل لكلمات الله" والإلتفات إلي الإسم الجليل للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية من موجبات أن لا يغالبه سبحانه وتعالي أحد في فعل من الأفعال، ولا يقع منه جل شأنه خلف في قول من الأقوال، وظاهر الآية أن أحداً غيره تعالي لا يستطيع أن يبدل كلمات الله عز وجل بمعني أن يفعل خلاف ما دلت عليه ويحول بين الله عز اسمه وبين تحقيق ذلك .أهـ(٨)

فالله سبحانه وتعالي قد حفظ كلمته من التغيير والتبديل، ولا يمكن أن يقترح أفضل منها، فهي كلمه الحكيم الخبير المتصف بكل صفات الكمال، فلا خلف لوعده، ولا مغير لحكمه.

وبعد هذا التقرير عن كلمة الله وأنها لا تتبدل ولا تتغير، يمكن لسائل أن يسأل إذا كان الأمر كذلك فلمَ حرف اليهود والنصاري التوراة والإنجيل وبدلوا وغيروا ما فيها؟

(١) سورة الأنعام الآية ١١٥
(٢) سورة يونس الآية ٦٤
(٣) سورة الكهف الآية ٢٧
(٤) سورة الحجر الآية ٩
(٥) سورة ق الآية ٢٩
(٦) سورة النساء الآية ١٢٢
(٧) سورة المائدة الآية ٥٠
(٨) روح المعاني الألوسي جـ٤ صـ ١٣٠

أقول إن كانوا غيروا وبدلوا في ألفاظهما وتراكيبهما، فإنهم لم يغيروا مضمونهما ومراد الله فيهما فحينما غيروا وبدلوا صفة النبي في التوراة والإنجيل وحرفوا الأحكام التي وردت فيهما أغيروا ذلك في الواقع ؟ لا

إن تحريفهم لم يمنع البعض منهم من اتباعه صلي الله عليه وسلم، ولم يقفوا حجر عثرة أمام الجمع الغفير من غيرهم أن يدخلوا في دينه صلي الله عليه وسلم، حتي قامت دولته وسادت شريعته وزلزل كيان يهود، وأزال ملك كسري وقيصر وفتحوا البلاد وحرروا العباد من عبادة العباد إلي عبادة رب العباد فهل غير تحريفهم وتبديلهم كلمة الله التي حكمت ببعثة محمد صلي الله عليه وسلم ليكون نبي آخر الزمان ؟ الواقع يقول لا.

٧- أنها الكلمة العليا:

قال تعالي ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١)

هذه الآية الكريمة تبين لنا أن كلمة الله هي الكلمة العليا التي لا تدانيها كلمة، ولا ترقي إليها، ولا تعلو عليها مهما كانت هذه الكلمة، ولو كان من ورائها كل قوي الأرض، فإن الأرض وما فيها مخلوق لله، والذين تحصنوا وتترسوا بأعداء الله مهما بلغت قوتهم، ومهما علت كلمتهم، فهي في ميزان قوة الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، كما قال سبحانه وتعالي ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(٢)– فمن كانت هذه قوته كانت كذلك كلمته ضعيفة، لا صدي لها، ومن كانت قوته قوة القوي الذي لا يُغلب، فكذلك كلمته علي قدر قوته.

قال الشيخ الألوسي رحمه الله: ولا يخفي ما في تغيير الأسلوب من المبالغة – أي في قوله تعالي وكلمة الله هي العليا بعدما قال سبحانه وجعل كلمة الذين كفروا السفلي– لأن الجملة الاسمية تدل علي الدوام والثبوت، مع الإيذان بأن الجعل لم يتطرق لتلك الكلمة، وأنها في

(١) سورة التوبة الآية ٤٠

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤١

نفسها عالية، بخلاف علو غيرها فإنه غير ذاتي، بل بجعل وتكلف، فهو عرض زائل وأمر غير قار، ولذلك وسط ضمير الفصل. أهـ[(١)]

فوصف كلمة الله بأنها العليا وصف دائم وذاتي، لا يطرأ عليها إنخفاض أو تغير، لأنها كلمة الله التي لا تتغير، لكن كلمة غيره منبثقة عن مخلوق صاحب أغيار، يوم في صعود ويوم في هبوط، فكلمة الله دائماً هي العليا شامخة في مكانها العالي لا يستطيع أحد أن يدانيها أو يعلو عليها.

(١) روح المعاني الألوسي جـ٥ صـ٢٩٠

المبحث الثاني

مفهوم كلمة الله في القرآن الكريم

لو تتبعنا آيات القرآن الكريم التي تذكر فيها كلمة الله، وأردنا أن نعرف مفهومها أو المقصود منها لعرفنا أنها تدور حول ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: تذكر كلمة الله ويراد بها: وحي الله إلي الرسل.

المقصد الثاني: تذكر كلمة الله ويراد بها: عجائب صنع الله وكمال قدرته تعالي.

المقصد الثالث: تذكر كلمة الله ويراد بها: قدره السابق وقضاؤه النافذ.

وسوف نبين ذلك في ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: وحي الله إلي الرسل:

إذا نظرنا إلي الآيات التي تذكر فيها كلمة الله أو كلماته سبحانه وتعالي التي يقصد بها وحي الله إلي الرسل عليهم الصلاة والسلام نجد أنها تتمثل فيما يلي:

١ – الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه عز وجل.

وقد صور القرآن الكريم ذلك في قوله تعالي ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فتاب عليه إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

هذه الآية الكريمة تبين لنا أن الله سبحانه وتعالي أوحي إلي آدم عليه السلام كلمات يعلمه بها كيف يتوب إليه سبحانه وتعالي بعد ما أقر بذنبه واعترف بمعصيته حين أكل هو وزوجه من الشجرة التي نهاهما الله عنها.

واختلف أهل التفسير في هذه الكلمات

فقيل هي قوله تعالي ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[(٢)]

وقيل: هي سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالي جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت[(٣)]

(١) سورة البقرة الآية ٣٧

(٢) الآية من سورة الأعراف الآية ٢٣ وهذا القول ذكره الإمام البخاري عن أبي العالية في كتاب أحاديث الأنبياء جـ٦ صـ٤١٦ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ط/ الريان– وقال ابن حجر عن هذا القول وصلة الطبري بإسناد حسن.

(٣) هذا القول ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد عن مجاهد من رواية أبي برزة وقال فيه سوار ـــ

وغير ذلك من الأقوال التي ذكرها المفسرون في كتبهم[(٤)] والأولي بالقبول من هذه الأقوال هو ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحة وهو قوله تعالي ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[(٥)] فأولي التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن

وعلي كل فإن الله سبحانه وتعالي قد عرف آدم معصيته، وعرفه وجوب التوبة منها وكيف يتوب، وآدم قد أخذ هذه الكلمات وعمل بها، وأقر بذنبه وندم عليه فتاب الله عليه.

فكانت هذه الكلمات هي المنقذة لآدم عليه السلام والسبب في اجتباء الله له ولذلك تلقاها بشغف وشوق كما يتلقي الحبيب حبيبه وكما يتلقف العليل دواءه، فسرعان ما أخذها وباشر العمل بها، وهذا ما نفهمه من قوله تعالي فتلقي ادم من ربه كلمات أي تلقاها بلهفة وشوق.

مصعب وهو متروك جـ٨ صـ١٩٩ ط دار المعارف بيروت سنة ١٩٨٦

(٤) انظر القرطبي– الجامع لأحكام القرآن جـ١ صـ٢٧٦ وتفسير ابن كثير جـ١ صـ٨١ وتفسير أبو السعود جـ١ صـ٧٤

(٥) سورة الأعراف الآية ٢٣

قال الشيخ الألوسي- رحمة الله - المراد بتلقي الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها فهو مستعار من استقبال الناس بعض الأحبة- إذا قدم بعد طول الغيبة- لأنهم لا يدعون شيئاً من الإكرام إلا فعلوه، وإكرام الكلمات الواردة من الحضرة، الأخذ والقبول والعمل بها. أهـ(1)

وهذا ما يوضح الفرق بين آدم عليه السلام وإبليس عليه لعنة الله ، فآدم أقر بالذنب واعترف بخطئه فتاب إلي الله وقبل الله توبته لكن إبليس لعنه الله لم يقر بالذنب، بل حاور وجادل، وأخذه الغرور والكبر، وقال كما أخبر القرآن الكريم ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾(2) وغير ذلك من الآيات فرد أمر الله سبحانه وتعالى فطرده الله من رحمته عز وجل.

فليكن لنا في أبينا آدم عليه السلام القدوة والأسوة في الإقرار بالذنب والأوبة والتوبة والرجوع إلي الله عز وجل عسي أن نكون عند الله تعالي من المقبولين.

---

(1) تفسير روح المعاني – الألوسي – حـ ١ صـ ٢٣٨

(2) سورة الإسراء الآية ٦١

٣- الكلمات التي ابتلي الله بها إبراهيم عليه السلام

قال تعالي: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾(3)

هذه الآية الكريمة تبين لنا أن الله سبحانه وتعالي قد ابتلي إبراهيم عليه السلام بكلمات فيها تكليف ببعض الأعمال الشاقة، ليكون مؤهلاً للمهمة التي إجتباه الله إليها، وهي النبوة والرسالة له وللذريه المخلصين من بعده.

واختلف العلماء في وقت الابتلاء هل كان قبل النبوة أم بعدها علي قولين:

القول الأول أن الابتلاء كان قبل النبوة لأن الله تعالي نبه علي أن قيامه صلي الله عليه وسلم بهن كالسبب لأن يجعله الله إماماً، والسبب مقدم علي المسبب، فوجب كون هذا الابتلاء متقدماً في الوجود علي صيرورته إماماً.

القول الثاني: أن الابتلاء كان بعد النبوة، لأنه صلي الله عليه وسلم لا يعلم كونه مكلف بتلك التكاليف إلا من الوحي، فلا بد من تقديم الوحي علي

---

(3) سورة البقرة الآية ١٢٤

معرفته بذلك(1)، إذا عرفنا ذلك فيجدر بنا أن نتعرف علي أقوال المفسرين في المراد بهذه الكلمات.

قال الإمام الفخر الرازي- رحمه الله- اختلف المفسرون في أن ظاهر اللفظ

هل يدل علي تلك الكلمات أم لا؟

في المسألة قولان:

القول الأول: اللفظ يدل عليها، وهي التي ذكرها الله تعالي من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده والدعاء بإبعاث محمد صلي الله عليه وسلم فإن هذه الأشياء أمور شاقة.

القول الثاني: أن ظاهر الآية لا دلالة فيه علي المراد بهذه الكلمات وهذا القول يحتمل وجهين.

أحدهما: بكلمات كلفه الله بهن هي أوامره ونواهيه فكأنه تعالي قال "وإذا ابتلي ابراهيم ربه بكلمات" مما شاء كلفه بالأمر بها.

الوجه الثاني: بكلمات تكون من إبراهيم يكلم بها قومه أن يبلغهم إياها.

---

(1) مفاتيح الغيب جـ ٤ صـ ٤١ بتصرف.

والقائلون بالوجه الأول اختلفوا في أن ذلك التكليف بأي شئ كان علي أقوال:

أحدها: قال ابن عباس هي عشر خصال كانت فرضاً في شرعه وهي سنة في شرعنا خمس في الرأس وخمس في الجسد، أما التي في الرأس فالمضمضة، والاستنشاق، وفرق الرأس، وقص الشارب، والسواك، وأما التي في البدن، فالختان، وحلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، والاستنجاء بالماء.

ثانيها: قال بعضهم: ابتلاه بثلاثين خصلة من خصال الإسلام، عشر منها في سورة براءة ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾(1) إلي آخر الآية، وعشر منها في سورة الأحزاب ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾(2) إلي آخر الآية وعشر منها في سورة المؤمنون "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلي قوله "أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾(3) وعشر في سورة "سأل سائل من قوله إلا المصلين" إلي قوله

---

(1) سورة التوبة الآية ١١٢

(2) سورة الاحزاب الآية ١٣٥

(3) سورة المؤمنون من الآية١ إلي الآية ١٠

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(١)
فجعلها أربعين سهما.

وثالثها: أمره بمناسك الحج، كالطواف، والسعي، والرمي، والإحرام، وهو قول قتادة وابن عباس.

ورابعها: ابتلاه بسبعة أشياء بالشمس، والقمر، والكواكب، والختان علي الكبر، والنار وذبح الولد، والهجرة، فوفي بالكل فلهذا قال الله تعالي ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾(٢).

خامسها: أن المراد ما ذكره في قوله ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣)

سادسها: المناظرات الكثيرة في التوحيد مع أبيه وقومه، ومع نمرود، والصلاة، والزكاة، والصوم، والضيافة، والصبر عليها. اهـ(٤)

وهذه الأقوال كلها لم يستطع أحد أن يقطع بأنها هي حقيقة الكلمات التي ابتلي الله بها إبراهيم عليه السلام إذا لم يصح في شئ منها خبر عن النبي صلي

(٤) سورة المعارج من الأية ٢٢- ٣٤
(٥) سورة النجم الأية ٣٧
(٦) سورة البقرة الآية ١٣١
(٧) مفاتيح العنب ص٤ ص ٤٠، ٤١ بتصرف بالحذف

الله عليه وسلم غير أن العلماء قد فسروها بهذه الأقوال لما فيها من المشقة التي تتضمن معني الإبتلاء.

قال القفال –رحمه الله – وجملة القول أن الابتلاء يتناول إلزام ما في فعله كلفة ومشقة فاللفظ يتناول مجموع هذه الأشياء ويتناول كل واحد منها اهـ(٥).

وقال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال إن الله عز وجل أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهنّ إليه وأمره أن يعمل بهن فأتمهن كما أخبر الله جل ثناؤه عنه أنه فعل وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره وجائز أن تكون بعضه، لأن إبراهيم صلوات الله عليه قد كان امتحن فيما بلغنا بكل ذلك فعمل به وقام فيه بطاعة الله وأمره الواجب عليه فيه وإذا كان ذلك كذلك فغير جائز لأحد أن يقول: عني به كل ذلك إلا بحجة يجب التسلم لها من خبر عن الرسول صلي الله عليه وسلم أو إجماع من الحجة، ولم يصح في شئ من ذلك خبر عن الرسول

(١) المرجع السابق ص ٤ س٤١

بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته .أ.هـ(١)

المهم أن إبراهيم عليه السلام أدي كل هذه التكاليف برغبة وحب ، ولم يتردد في قبول الأمر من الله عز وجل فنجح في الاختبار، واجتاز الابتلاء ووفي التكاليف وأتم كلمات ربه فأصبح بمثابة الأمة في صفاتها وخلالها، واستحق أن يكون إماما للمؤمنين.

٣- كلام الله لموسي عليه السلام.

قال تعالي: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾(٣)

هاتان الآيتان تشيران إلي أن موسي عليه السلام قد اصطفاه الله سبحانه وتعالي بالكلام مشافهة بغير واسطة حتي اشتهر بأنه الكليم وهذا ما يفيده قوله تعالي وكلم الله موسي تكليما– فالمصدر

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن الكريم جـ٣ صـ١٥
(٣)سورة النساء الآية ١٦٤
(٣) سورة الأعراف من الآية ١٤٤

تكليما يفيد أن الكلام كان لموسي عليه السلام مباشرة بدون واسطة.

قال الإمام القرطبي – رحمه الله– تكليما مصدر معناه التأكيد يدل علي بطلان من يقول خلق لنفسه كلاما في شجرة فسمعه موسي، بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم متكلماً.

قال النحاس:

وأجمع النحويون علي أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً. اهـ(٤). وكذا قال ابن الجوزي: تأكيد كلم بالمصدر يدل علي أنه سمع كلام الله حقيقة. اهـ(٥).

ولا يرد هذه الخصوصية لموسي عليه السلام القول بأن نبينا محمداً صلي الله عليه وسلم قد كلمه ربه ليلة الإسراء والمعراج، كما يري ذلك البعض، عندما فسر قوله تعالي: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾(٦) لأن الوحي لا يقتصر علي

(١)الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي ص٣ ص ٢٠١٤
(٢) تفسير ذا المسير/ ابن الجوزي ص٢ ص ١٥٣
(٦) سورة النجم من الآية ٨-١٠

الكلام مباشرة فقد يكون الوحي بواسطة جبريل عليه السلام.

قال الحافظ ابن كثير– رحمه الله– بعد ما انتصر إلي أن النبي صلي الله عليه وسلم لم ير ربه ليلة الإسراء والمعراج بل المرئي جبريل عليه السلام علي صورته الحقيقية له ستمائة جناح– فعلي ما ذكرنا يكون قوله (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) معناه فأوحي جبريل إلي عبد الله محمد ما أوحي، أو فأوحي الله إلي عبده ما أوحي بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح. اهـ(١). هذا وقد وردت بعض الروايات في كلام الله لموسي عليه السلام أذكر منها:

أخرج الإمام الطبراني – رحمه الله– في معجمه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي صلي الله عليه وسلم قال إن الله تعالي ناجي موسي عليه السلام بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام فلما سمع كلام الآدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل فكان فيما ناجاه أن قال: يا موسي إنه لم يتصنع لي المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرب لي المتقربون بمثل

---

(٤)فسير ابن كثير ص٤ ص ٣٤٩

الورع عما حرمت عليهم، ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي. فقال موسي: يارب وإله البرية كلها ومالك يوم الدين وياذا الجلال والإكرام ماذا أعددت لهم وبماذا جزيتهم؟ قال: أما الزاهدون في الدنيا فإني أبيحهم جنتي يتبوؤا منها حيث شاؤوا، وأما الورعون عما حرمت عليهم فإذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما عليهم في يديه إلا الورعون فإني أجلهم فأولئك لهم الرفيق الأعلي لا يشاركهم فيه أحد(٢).

وأخرج ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: قال موسي: يارب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به؟ قال: قل يا موسي لا إله إلا الله. قال يارب كل عبادك يقولون هذا. قال: قل لا إله إلا الله. قال لا إله إلا الله . قال : لا إله إلا أنت يارب إنما أريد شيئا تخصني به. قال: يا موسي لو أن السماوات السبع

---

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير حديث رقم ١٦٥٠ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد جـ١٠ صـ٢٩٥ وقال فيه جويبر وهو ضعيف .

وعامرهن غيري والأراضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله/. (١).

وغير ذلك من الروايات الكثيرة التي ذكرها المفسرون في كتبهم التي ينبغي التوقف فى قبولها إلا ما يتفق مع عقيدتنا وشريعتنا والله أعلم.

٤- كلام الله المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم- القرآن-

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾(٢)

وقال سبحانه﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾(٣)

هاتان الآيتان الكريمتان تشيران إلى أن المقصود بالكلام فى الآيتين هو القرآن الكريم الذى انزله الله على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: "حتى يسمع كلام الله" أى القرآن تقرؤه

---

(٢)أخرجه الحاكم في المستدرك جـ١ صـ ٥٢٨ وصححه ووافقه الذهبي وأخرجه ابن حبان في صحيحه حديث رقم ٢٣٢٤.

(٣)سورة التوبة الآية ٦

(٤)سورة الكهف الآية ٢٧

عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله(٤)هـ.

وقال الإمام الألوسى –رحمه الله– والمراد بكلام الله تعالى الآيات المشتملة على ما يدل على التوحيد، ونفى الشبه والشبيه، وقيل : سورة براءة ، وقيل : جميع القرآن لأن تمام الدلائل والبينات فيها.هـ(٥)

وقال العلامة ابن عاشور –رحمه الله– فى تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾- لا تعبأ بهم إن كرهوا تلاوة بعض ما أوحى إليك واتل جميع ما أوحى إليك فإنه لا مبدل له.هـ(٦)

وقال القرطبى– رحمه الله– أى اتبع القرآن فلا مبدل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به.هـ(٧)

---

(٥)تفسير ابن كثير جـ٢ ص٣٣٧

(١) تفسير الألوسى جـ٥ ص٢٤٨

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ص١٥ ص٣٠٣ ط/ الدار التونسية للنشر وهو محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكين بتونس المتوفي سنة ١٣٩٣هـ.

(٣) الجامع لأحكام القرآن/القرطبى ص٦ ص٤٠٠٦

فالكلام الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يسمعه المشركين هو ال يتلوه عليهم هو كلام الله سبحانه وتعالى المترل عليه صلى الله عليه المتعبد بتلاوة المتحدى بأقصر سورة منه، وهو القرآن الكريم وقد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه من عند الله عز وجل ولم يكن له صلى الله عليه وسلم ولا لجبريل عليه السلام دخل فيه إلا البلاغ عن الله عز وجل ثم التوضيح والبيان للرسول صلى الله عليه وسلم.

ويجدر بي في هذا المقام أن أنقل لكم ما قاله الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم عن القرآن الكريم حيث قال: لقد علم الناس أجمعون علماً لا يخالطه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربى أمى ولد بمكة فى القرن السادس الميلادى. اسمه محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.. هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد، لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادة لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض.

أما بعد. فمن أين جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله؟ أمن عند نفسه ومن وحى ضميره أم من عند معلم؟ ومن هو ذلك المعلم؟ نقرأ فى هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه وإنما هو قول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم آمين: ذلكم هو جبريل عليه السلام تلقاه من لدن حكيم عليم ثم نزله بلسان عربى مبين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم فتلقفه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصا من النصوص، ولم يكن له من عمل بعد ذلك إلا:

١- الوعى والحفظ ثم ٢- الحكاية والتبليغ ثم ٣- البيان والتفسير ثم ٤- التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل، وليس له من أمرهما شئ إن هو إلا وحى يوحى.

هكذا سماه القرآن حيث يقول ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ (١) ويقول﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾(٢).

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠٣

(٢) سورة يونس الآية ١٥

وأمثال هذه النصوص فى شأن إيحاء المعانى ثم يقول فى شأن الإيحاء اللفظى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١) وقال ﴿سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى﴾ (٢) وقال ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (٣) وقال﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (٤) وقال ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ (٥)

وقال ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ (٦)

فانظر كيف عبر بالقراءة والإقراء والتلاوة والترتيل وتحريك اللسان وكون الكلام عربياً وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعاني البحته.

القرآن إذاً صريح في أنه لا صنعة فيه لمحمد صلي الله عليه وسلم ولا لأحد من الخلق وإنما هو مترل من عند الله بلفظه ومعناه " ا.هـــ (٧).

(٣) سورة يوسف الآية ٢

(٤) سورة الأعلى الآية٦

(٥) سورة القيامة من الآية ١٦ وما بعدها

(٦) سورة العلق الآية١

(٧) سورة الكهف الآية ٢٧

(٦) سورة المزمل : آية ٤.

(٩) كتاب النبأ العظيم ص٢٠، ٢١ .

وبعد هذا البيان نقول إن المقصود بالكلام والكلمات في آيتي الأعراف والكهف هو القرآن الكريم المترل علي نبينا محمد صلي الله عليه وسلم من عند الله بلفظه لا مبدل له ولا مغير له فهو محفوظ من قبل الله عز وجل إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المطلب الثاني

عجائب صنع الله وكمال قدرته.

الذي يتدبر في كتاب الله العزيز، يجد أن الحق سبحانه وتعالي يخبرنا عن كلمته عز وجل، ويريد بها إظهار قوته، وكمال قدرته في خلقه للأشياء، وأن خلقه سبحانه وتعالي لا يتوقف علي أسباب ومسببات ولا يحتبس لنواميس أو سنن في إيجاد الأشياء، بل إنه جل وعلا إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون وإليك بيان ذلك.

أولا: خلقه آدم عليه السلام

قال تعالي﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (١).

الآية الكريمة تبين لنا أن الله سبحانه وتعالي خلق آدم عليه السلام بكلمة كن فكان بشرا كما قال الإمام الشوكاني رحمه الله: قال كن بشرا فكان بشرا. اهـ(٢).

والآيات القرآنية تبين لنا مراحل هذا الخلق بالنسبة للإنسان، فبينت أنه سبحانه وتعالي خلقه من تراب كما في هذه الآية التي نحن بصددها، ثم أضيف إلي التراب ماء فصار طيناً كما قال سبحانه وتعالي ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (٣) ثم أصبح الطين لازبا كما قال سبحانه﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (٤) ثم صار حمأ مسنوناً(٥) كما قال عز وجل﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٦) ثم صار صلصالا كما في الآية السابقة ثم نفخ فيه من روحه كما قال سبحانه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٧).

إن مرور الإنسان بهذه الأطوار قبل النفخ من تسويته من الطين حتي صار هيكلا من صلصال أمر قد يتصوره الإنسان، وقد يقوم البشر بمثل هذا العمل من رسم صورة إنسان في تمثال أو

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩

(٢) فتح القدير- الشوكاني ج١ ص٣٤٦

(٣) سورة ص الآية ٧١

(٤) سورة الصافات الآية ١١

(٥) قال العلامة ابن عاشور الحمأ: الطين إذا أسود وكرهت رائحته. والمسنون: الذي طالت مدة مكثه وهو اسم مفعول من فعل سنه إذا تركه مدة طويلة تشبه السنة ا.هـ التحرير والتنوير ص١٤ .

(٦) سورة الحجر الآية ٢٦

(٧) سورة الحجر الآية ٢٩

نحوه من طين أو من أي مادة، لكن السر العجيب في أن هذا الهيكل بعد نفخ الروح فيه يتحول هذا الطين الذي في أحشائه إلي قلب ورئة ومعدة وأمعاء وكبد وجهاز بولي وتناسلي وغير ذلك، والطين الذي في دماغه إلي مخ وعصب وعين وأذن وأنف وفم وغير ذلك فإذا بهذا الإنسان الذي كان حفنة تراب يتحرك، ويسمع ويبصر، ويأكل ويشرب، ويتناكح ويتناسل، ويفكر ويتخيل، ويعقل، ويعي، ويجادل ويحاور إلي غير ذلك من الخصائص الإنسانية ويصبح مخلوقاً عجيباً قد انطوي فيه العالم الأكبر بعد ما لم يكن شيئاً مذكوراً، كل ذلك يدل علي طلاقة القدرة، وكمال الصنعة، فتبارك الله أحسن الخالقين.

يقول صاحب الظلال- رحمه الله-

كيف ارتقي هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلي أفق الحياة العضوية أولاً، وإلي أفق الحياة الإنسانية أخيراً؟ فهنا السر الذي يعجز عن تعليله البشر أجمعون. وما يزال سر الحياة في الخلية الأولي خافياً لا يزعم أحد أنه اهتدي إليه. فأما سر الحياة الإنسانية العليا بما لها من مدارك وإشراقات وطاقات متميزة علي الخلائق الحيوانية جميعاً. تفوقا حاسماً فاصلا منذ بدء ظهور الإنسان. فأما هذا السر فما تزال النظريات تخبط حوله ولا تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته. اهـ(١).

فالسر هو هذه الكلمة التي حولت التراب الذي يمثل أدني المخلوقات وهو الجماد إلي أرقي الأحياء وهو الإنسان، ولذلك نري الحق سبحانه وتعالي يرد خلقه للإنسان إلي المرحلة الأولي وهي التراب، ليكون التعجب أشد فإنه آية عجيبة علي كمال قدرة الله عز وجل قال تعالي﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ (٢).

وإذا هنا، هي إذا الفجائية لدهشة الإنسان من هذا الخلق العجيب، تراب يصير إنساناً.

يقول الشيخ الألوسي- رحمه الله - خلقكم من تراب- أي من تراب لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم اهـ .

(١) ظلال القرآن- سيد قطب ص٤ ص٢١٣١

(٢) سورة الروم الآية ٢٠

هذه هي الكلمة الربانية والنفخة الإلهية التي حولت هذه الحالة المهينة من التراب والطين والحمأ المسنون إلي هذه الخلقة السوية وهذا التركيب العجيب الذي لا يقدر عليه إلا الله، فعلي الإنسان أن يطامن إلي ربه عز وجل، ويقدره حق قدره، بعدما عرف كمال إنعامه عليه و عظيم إحسانه إليه، وأنه خلقه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صوره ولم يكن شيئاً مذكوراً.

ثانيا: خلق عيسي عليه السلام

قال تعالي: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(١).

وقال سبحانه:﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قال كذلك قال ربك هو علي)قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾"(٢).

هذه الآيات الكريمات تبين لنا طلاقة قدرة الله عز وجل في خلقه لعيسي عليه السلام من غير أب فبكلمة من الله حملت مريم عليها السلام بعيسي دون أن يمسها بشر، بل جاءها جبريل عليه السلام وبشرها بأنها ستلد ولدا اسمه المسيح عيسي ابن مريم صفته كذا وكذا، فتعجبت من هذا الأمر، كيف تلد هذا الولد دون أن يمسها بشر مع أن جبريل عليه السلام لم يقل لها ذلك فربما يكون ميلادا طبيعاً بأنها ستتزوج، وتحمل وتلد، ولكنها فهمت أنه سيكون بغير أب لأن الله نسبه إليها، فقال عيسي ابن مريم، والولد ينتسب إلي أبيه فلم يذكر أبا له.

يقول الإمام الشعراوي- رحمه الله- في خواطره حول هذا المعني: نريد أن نقف وقفة ذهنية تدبرية عند قولها "قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ " فلو أنها سكتت عند قولها " أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ " لكان أمرا معقولا لي تساؤلها ولكن اضافتها " ولم يمسني

(١) سورة آل عمران من الآية ٤٥-٤٧

(٢) سورة مريم الأيتان ٢٠، ٢١

بشر"؟ هل قال لها أحد: إنك ستلدين ولدا من غير أب؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك لذلك انصرف ذهنها الي مسألة المس، إنما الفطرة والفطنة المهيأة والمعدة للتلقي عن الله، عندما قال لها " المسيح ابن مريم" قالت لنفسها: إن نسبته بأمر الله هي لي فلا أب له، لقد قال الحق إنه ابن مريم ولذلك جاء قولها: " ولم يمسني بشر" ذلك أنه لا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب، هكذا نري فطنة التلقي عن الله في مريم البتول، لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسي منسوب إليها قالت لنفسها: إن الحمل بعيسي لن يكون بواسطة أب، وكيف يكون الحمل دون أن يمسني بشر، وقال الخالق الأكرم " كذلك" أي لن يمسك بشر، ولم يقل لها: لقد نسبناه لك لأنك منذورة لخدمة البيت ولكن الحق قال " كذلك" تأكيداً لما لهمته عن إنجاب عيسي دو ن أن يمسها بشر، وتتجلي طلاقة القدرة في قوله سبحانه " الله يخلق ما يشاء"

إنها طلاقة القدرة، وطلاقة القدرة في الإنسال أو الإنجاب أو في عدم التكثير بالنسبة للإنسان، وطلاقة القدرة لا تتوقف علي إيجاد ذكورة وأنوثة، إنه الحق الأعلي القادر علي أن يخلق دون ذكورة وأنوثة كخلقه آدم عليه السلام، ويخلق الخالق الأعلي بالذكورة والأنوثة. وهذه تتضح في خلق جمهرة الناس،ولا تظنوا أن باجتماع الذكورة والأنوثة يمكن أن يحقق الخلق، فقد توجد الذكورة والأنوثة ولا يوجد إنجاب، هاهو ذا القول الحق.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(١)

هذه هي إرادة الحق. إذن فلا تقل إن اكتمال عنصري الذكورة والأنوثة هو الذي يحدث الخلق لأن الخلق يحدث بإرادة الحق، كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضي أمرا فإنما يقول له كن فيكون" فأنتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب لكن الذي خلقكم وخلق الأسباب لكم هو الذي بيده أن يوجد بلا أسباب، لأنه أنشأ العالم أول ما أنشأ بدون أسباب. ١هـ(٢).

(١) سورة الشوري الآيتان ٤٩، ٥٠.

(٢) تفسير الشعراوي عدد ١٩ ص١٤٧٩، ١٤٨-ط أخبار اليوم وهو الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي المتوفي بمصر سنة ١٩٩٨م.

فالمسيح عليه السلام جاء بكلمة من الله هي قوله كن فكان، ولذا أطلق عليه أنه كلمة الله كما قال تعالي: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(١).

وقال النبي صلي الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري رحمه الله عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسي عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلي مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة علي ما كان من العمل(٢)".

وحول معني كون عيسي ابن مريم عليه السلام كلمه الله قال الأمام الفخر الرازي رحمه الله فإن قيل لم سمي عيسي كلمة الله؟

قلنا فيه وجوه:

الأول: أنه خلقه بكلمة الله وهو قوله (كن) من غير واسطة الأب، فلما كان تكوينه بمحض قول الله "كن" وبمحض تكوينه وتخليقه من غير واسطة الأب والبذر، لا جرم سمي كلمة، كما يسمي المخلوق خلقا، والمقدور قدرة، والمرجو رجاء، والمشتهي شهوة، وهذا باب مشهور في اللغة.

الثاني: أنه تكلم في الطفولة وآتاه الله الكتاب في زمان الطفولية، فكان في كونه متكلما بالغا مبلغا، عظيما فسمي كلمة بهذا التأويل، وهو مثل ما يقال فلان جود وإقبال، إذا كان كاملا فيهما.

الثالث: أن الكلمة كما أنها تفيد المعاني والحقائق، كذلك عيسي كان يرشد إلي الحقائق الألهية، فسمي كلمة الله بهذا التأويل، وهو مثل تسميته روحا من حيث إن الله تعالي أحيا به من الضلال كما يحيا الإنسان بالروح، وقد سمي الله القرآن روحا فقال ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾(٣)".

الرابع: أنه قد وردت البشارة به في كتب الأنبياء الذين كانوا قبله، فلما جاء قيل: هذا هو تلك الكلمة فسمي كلمة بهذا التأويل.

(٣) سورة النساء الآية ١٧١

(٤) الحديث أخرجه البخاري- كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالي" يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق حديث رقم ٣٤٣٥ فتح الباري جـ٦ صـ ٥٤٦ ط الريان

(١) سورة الشوري الآية ٥٢

قالوا ووجه المجاز فيه أن من أخبر عن حدوث أمر فإذا حدث ذلك الأمر قال: قد جاء قولي وجاء كلامي، أي ما كنت أقول وأتكلم به، ونظيره قوله تعالي ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾(١) وقوله تعالي ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٢).

الخامس: أن الإنسان قد يسمي بفضل الله ولطف الله. فكذا عيسي عليه السلام كان اسمه العلم كلمة الله وروح الله. اهـ(٣).

وعلي كل فكل هذه الوجوه التي ذكرها الإمام الفخر الرازي- رحمه الله- تنطبق علي عيسي عليه السلام فهو كلمة الله التي تمثل القدرة الإلهية في أنه عليه السلام ولد بغير أب وتكلم في المهد صبياً. وهو يمثل كلمة الله لأنه مبلغ عن الله وصاياه إلي خلقه، فهو رسول من قبل الله إلي الناس، وهو كلمة الله التي لا تتغير، ووعده الذي لا يتبدل فقد أصبح أمرا واقعا وحقيقة شاخصة بعدما كان بشارة ووعدا، وكل ذلك يمثل طلاقة قدرة، وسعة علم وتحقيق إرادة، فسبحانه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

ثالثاً: ولادة إسحاق ويحيي عليهما السلام مع إنقطاع الأسباب

أ- ولادة إسحاق.

قال تعالي ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾(٤). وقال سبحانه. ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾(٥).

هذه الآيات الكريمات تبين لنا أن

(٢) سورة غافر الآية ٦

(٣) سورة الزمر الآية ٧١

(٤) مفاتيح الغيب / الرازي ص ٨ ص٣٦

(١) سورة هود من الآية ٦٩- ٧٣.

(٢) سورة الذاريات من الآية ٢٨ ــ ٣٠.

الملائكة جاءت تبشر إبراهيم وزوجه سارة بإسحاق -عليهم وعلي نبينا أفضل الصلاة وأزكي السلام- مع أن سارة قد بلغت من السن مبلغ العجائز الذي يستحيل معه الحمل لانقطاع دم الحيض عند هذا السن، علاوة علي أنها كانت عقيماً في شبابها، ولذلك اندهشت من ذلك وتعجبت حتي صرخت ولطمت جبينها كما تفعل النساء وقالت عجوز عقيم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: قوله تعالي (فأقبلت امرأته في صرة) أي في صرخة عظيمة ورنة قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم والثوري والسدي وهي قولها يا ويلتا (فصكت وجهها) أي ضربت بيدها علي جبينها قاله مجاهد وقال ابن عباس رضي الله عنهما لطمت أي تعجبا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب وقالت (عجوز عقيم) أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيما لا أحبل (قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) أي عليم بما تستحقون من الكرامة حكيم في أقواله وأفعاله. اهـ(١).

فالملائكة حينما تعجبت سارة واندهشت قالوا لها هذا كلام حق ووعد صدق فهو ليس قولنا ولكنه قول ربنا لأنها قد تظن أن هذا الكلام منا بمنزلة الدعاء، كما يفعل الأضياف حينما ينتهوا من قري المضيف يعقبون ذلك بالدعاء له بالبركة في المال والولد، وإن لم يكن له ولد دعوا له بالإنجاب، فكأنهم قالوا هذا ليس منا بدعاء ولكنه كلام من الله أمرنا أن نبشركم به.

وسارة حينما تعجبت من ذلك لا تنكر قدرة الله، ولا تتعجب منها، ولكن هذه هي العادة حينما يبشر الإنسان بأمر يهواه ويحلم به ويتمناه وانقطعت أسباب تحصيله.

إن المفاجأة العنيفة التي لم تكن تتوقعها هي التي أدهشتها وجعلتها تقول ما قالت.

يقول الإمام الفخر الرازي- رحمه الله- لقائل ان يقول إنها تتعجب من

(١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ص٤ ص

قدرة الله تعالي والتعجب من قدرة الله تعالي يوجب الكفر.

والجواب أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة، فإن الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن الله تعالي يقلب هذا الجبل ذهباً أبريزاً فلا شك أنه يتعجب نظراً إلي أحوال العادة لا لأجل أنه استنكر قدرة الله تعالي علي ذلك. اهـ(١).

فقدرة الله ليس لها حدود وطالما أنه سبحانه وتعالي قال فلا راد لقوله، ولا معقب لحكمه، ولكن إلف العادة وإدراك الإنسان المحدود في تصوره يجعله يستغرب هذا الأمر، ولو أدرك من القائل ومن المتكلم؟ لأدرك هوان هذا الأمر عليه سبحانه.

ب- ولادة يحيى:

قال تعالي: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(٢).

وقال سبحانه ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا* قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا* قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾(٣).

هذه الآيات الكريمات تبين لنا أن الحق سبحانه وتعالي قد بشر زكريا بميلاد يحيي عليهما السلام مع أن زكريا قد بلغ من الكبر عتيا. والعتو كما يقول الراغب: (هو حالة لا سبيل إلي إصلاحها ومداواتها)(٤) وكذلك امرأته قد بلغت سن اليأس الذي يستحيل معه الإنجاب.

قال القرطبي- رحمه الله- كان زكريا يوم بشر ابن تسعين سنة وامرأته قريبة السن منه وذكر عن ابن عباس والضحاك كان يوم بشر ابن عشرين

(٢) مفاتيح الغيب- الفخر الرازي ص ١٨ ص٢٢ بتصرف.

(١) سورة آل عمران من الآية ٣٨-٤٠.
(٢) سورة مريم من الآية ٧-٩
(٤) المفردات للراغب حق باب عتي

وماثة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة. ١هـ.(١)

ومع ذلك قال الله كلمته فبشره بمولود ذكر اسمه يحي يكوون سيدا وحصوراً ونبيا من الصالحين، فتعجب زكريا من هذا الأمر وسأل عن كيفية ذلك، إنه أمر مستحيل إذا ما نسب إلي الأسباب ومسبباتها ولذلك قال كما أخبر القرآن الكريم أني يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا.

قال الحافظ ابن كثير- رحمه الله- هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلي ما سأل وبشر بالولد، وفرح فرحا شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقرا لم تلد من أول عمرها مع كبرها ومع أنه قد كبر وعتا أي عسي عظمة ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع. ا.هـ(٢). ولكن نسبة الأمر إلي الله بقوله تعالي كذلك قال ربك تزيل الدهشة وتزيل التعجب من هذا الأمر.

(٤) تفسير القرطبي جـ ٣ صـ ١٣٢١.

(٥) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير جـ٣ص١١٢.

قال الشيخ الألوسي رحمه الله. لو كان الاقتصار في جواب زكريا عليه السلام علي (هو علي هين) من دون إقحام (قال ربك) لكان مستقيما لكن إنما عدل إليه للدلالة علي تحقيق الوعد وإزالة الاستبعاد بالكلية، علي منوال ما إذا وعد ملك بعض خواصه ما لا يجد نفسه تستأهل ذلك، فأخذ يتعجب مستبعداً ان يكون من الملك بتلك المنزلة، فحاول أن يحقق مراده، ويزيل استبعاده، فإما أن يقول لا تستبعد إنه أهون شئ علي، علي الكلام الظاهر، وإما أن يقول لا تستبعد قد قلت إنه أهون شئ علي، إشارة منه إلي أنه وعد سبق القول به وتحتم، وأنه من جلالة القدر بحيث لا يرى فى إنجازه لباغيه كائنا من كان وقعا، فكيف لمن استحق منه لصدق قدمه فى عبوديته إجلالا ورفعا، وهذا قول بلسان الإشارة يصدق، وإن لم يكن قد سبق منه نطق به لأن المقصود أن علو المكانة وسعة القدرة وكمال الجود يقضى بذلك. ١هـ(٣).

فإن كلمة الله ليس ككلمة البشر لأن البشر قد لا يستطيع أن ينفذ كلمته

(١) روح المعاني/ الألوسى ص٨ ص٣٨٧

لأمر فوق طاقته من عدم توفر أسبابه، أو نفاد ما في اليد، فكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى، فهو الذى خلق الأسباب والمسببات، فمع كبر سن زكريا، وزوجه، وإبراهيم وزوجه، وما فعل الزمان فيهم من انحناء الظهر، وضمور الجسم، وانقطاع الحيض، وندرة اللقاح، إلا أن الله رزقهم بمولودين عظيمين، ونبيين كريمين وأصلح الله ما أفسد الدهر.

رابعا : جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم

قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾(١).

تبين الآيات الكريمات من سورة الأنبياء التى تقص علينا نبأ إبراهيم عليه السلام أن القوم الكافرين لجأوا إلى التخويف والترهيب، والتنكيل والتعذيب، بعد ما فشلوا فى معارضته بالحجة والدليل، فبنو له بنياناً عظيماً، وجمعوا الحطب الكثير وأشعلوا فيه النار ثم ألقوه فيها ليتخلصوا منه وليستريحوا من دعوته، ولكن يأبى الله إلا أن يتم

(٢) سورة الأنبياء الآيتان ٦٨، ٦٩

نوره، فأمر النار أن تكون برداً وسلاماً علي إبراهيم لتصبح هذه النار نورا ساطعاً وبرهاناً ظاهراً على صدق إبراهيم عليه السلام.

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله- لما دحضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين فجمعوا حطباً كثيراً جداً قال السدى حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه فى كومه من الأرض وأضمروها ناراً فكان لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام فى كفة المنجنيق، فلما ألقوه قال حسبى الله ونعم الوكيل كما أورد البخارى(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: حسبى الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ

(١) الحديث أخرجه البخارى كتاب التفسير باب الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم- حديث رقم ٤٥٦٣ فتح الباري جـ٨ صـ٧٧.

جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[١] أهـ[٢]

فإن إبراهيم عليه السلام قد ركن إلى ربه وتوكل عليه، فعطل الأسباب وخرق النواميس ليدل على كمال قدرته، فهو الخالق يتحكم فى خلقه كيف يشاء، فهو الذى خلق فى النار خاصية الإحراق، وهو الذى نزعها منها، فهذا تصرف المالك والملك فى ملكه ومُلكه.

ونرى أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل ريحاً أو مطراً فتخمد النار، أو لم يمكنهم من إبراهيم عليه السلام بل بقيت النار كما هي، وتمكنوا من إبراهيم، فألقوه في النار وظل فيها وهم يشاهدون، العجيب أن النار لم تؤثر فيه بل كانت أفضل أيام إبراهيم أيامه في النار، لأنة كان في معيه الله، بعيدا عن الأسباب. واختلف المفسرون في من الذي قال للنار كوني بردا وسلاما، علي إبراهيم وكيف كان ذلك قال الإمام الألوسي رحمة الله — الظاهر أن الله تعالي هو القائل لها كوني بردا وسلاما وأن هناك قولا حقيقة وقيل القائل جبريل

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٣

(٣) تفسير ابن كثير ص١٨٣، ١٨٤.

علية السلام بأمره سبحانه. وقيل قول ذلك مجازاً عن جعلها باردة، والظاهر أيضا أن الله عز وجل سلبها خاصتها من الحرارة والإحراق، وأبقي فيها الإضاءة والإشراق، وقيل: إنها انقلبت هواء طيباً، وهو علي الهيئة من أعظم الخوارق، وقيل كانت علي حالها لكنه سبحانه جلت قدرته دفع أذاها، وأياً ما كانت فهو آية عظيمة وقد يقع نظيرها لبعض صلحاء الأمة المحمدية كرامة لهم لمتابعتهم النبي الحبيب صلي الله وعلية وسلم . أهـ[١]

وإذا كان القائل هو الله عز وجل أو جبريل علية السلام أو ليس قولا حقيقيا، فالأمر من الله ابتداء لأنة الفاعل سبحانه وتعالي، وإذا كان الفاعل هو الله فلا نسأل عن الكيفية، الكيفية أن الله أمر، وقال لها كوني بردا وسلاما علي إبراهيم، فكانت علي أفضل كيفية.

قال صاحب الظلال رحمه الله — كانت بردا وسلاما علي إبراهيم كيف؟ ولماذا نسأل عن هذه وحدها وكوني هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان، وتنشأ بها عوالم، وتخلق بها نواميس، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فلا نسأل كيف لم تحرق النار إبراهيم،

(١) روح المعاني الألوسي جـ٩ صـ٦٦ بتصرف

والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية؟ فالذي قال للنار كوني حارقة هو الذي قال لها كوني بردا وسلاما، وهي الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول مألوفا للبشر أو غير مألوف. أهـ[١]

إنما كلمة الله العليا الحقه التامة التي لا حدود لها ولا قيود، ولو استشعر المؤمنون قيمة هذه الكلمة فآمنوا بها، وعملوا من أجلها لكانت هي قوة الدفع وطوق النجاة مما تداعي علية الأمم الكافرة وما يدبره لهم الطغاة، فما شاهدناه من عجائب صنعه في خلق آدم وعيسي وميلاد اسحق ويحيى وجعل النار بردا وسلاما علي إبراهيم يدلنا علي أن كلمته سبحانه وتعالي ليس لها حدود ولا تمنعها قيود فلو ركنا إليه عز وجل وتوكلنا عليه سبحانه وتعالي لما كان لأحد أن يخوفنا وما كانت لقوة أن ترهبنا ولكانت الدنيا كلها أمنا وسلاماً علي المؤمنين.

(١) ظلال القرآن جـ٤ صـ ٢٣٨٧

المطلب الثالث

قدر الله السابق وقضاؤه النافذ

الذي يتدبر في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يجد أن كلمة الله تذكر في القرآن الكريم وتمثل قدر الله السابق وقضاؤه النافذ وسننه في خلقه التي لا يستطيع أحد تبديلها أو تغييرها.

من ذلك ما يلي :

أولا : سبق الكلمة بنصر المؤمنين.

قال تعالي: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[٢].

هذه الآيات الكريمات تبين لنا سنة من سنن الله في خلقه التي قدرها سبحانه وتعالي وهي النصر للمرسلين وأتباعهم المؤمنين الصادقين، إذا ما حققوا الجندية لله، وكانوا مؤمنين حق الإيمان ونصروا دين الله عز وجل كما قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣] وقال عز وجل ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

(٢) سورة الصافات من الآية ١٧١-١٧٣

(٣) سورة محمد الآية ٧

الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) وقال ههنا ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

قال الشيخ الالوسي – رحمه الله– واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الإضافة فلا يغلب أتباع المرسلين في حرب إلا لإخلالهم بما تشعر به بميل ما إلي الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالي أو نحو ذلك.أهـ (٢).

فسنة الله ماضية في طريقها لا يعوقها عائق إذا ما تحقق شرطها، وهو تحقيق الجندية لله ونصرة دين الله، وهذه سنه أكيدة كثيرا ما أكد عليها القرآن الكريم في آيات كثيرة منها قوله تعالي ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٣) وقوله سبحانه ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤) قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – حول تفسيره لقوله تعالي "كتب الله لأغلبن أنا ورسلي" أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصر له، ولكتابه ورسله، وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٥) كما قال تعالي ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٦) قال ههنا كتب الله "لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز" أي كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.أهـ (٧)

وقال صاحب الظلال– رحمه الله– هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية سنه ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دورتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض علي مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة من الأرض الميتة، ينزل عليها الماء ولكنها مرهونة بتقدير الله يحققها حين يشاء، ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلي أعمار البشر المحدودة، ولكنها لا تتخلف

(١) سورة الروم الآية ٤٧
(٢) روح المعاني الألوسي جـ١٢ صـ١٤٩
(٣) سورة غافر الآية ٥١
(٤) سورة المجادلة الآية ٢١
(٥) سورة الأعراف من الآية ١٢٨
(٦) سورة غافر الآيتان ٥١، ٥٢
(٧) تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٣٢٩

أبدا ولا تختلف.أهـ (١) فهي سنة ماضية في طريقها مهما رصد لها أهل الباطل من قوي، ومهما جندوا لها من جنود، وبذلوا لأجلها الأموال لأن الرسل منتسبون إلي الله والجنود في حماه، فليعملوا علي مكانتهم فإن الله عامل ، والله حسبنا ونعم الوكيل.

ثانيا : سبق الكلمة بإمهال الكافرين.

قال تعالي ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٢) وقال سبحانه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (٣) وقال عز وجل ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (٤) هذه الآيات الكريمات تبين لنا أنة لولا ما تقدم من حكم الله سبحانه وتعالي، وما قدره أزلا بتأخير عذاب هذه الأمة إلي يوم القيامة لأنزل بهم العذاب الذي يستحقونه لعظم كفرهم، ولا ستأصل شأفتهم، وقطع دابرهم، وحل بهم عذاب الاستئصال، ولكن مشيئته سبحانه وتعالي اقتضت أن تكون هذه الأمة هي آخر الأمم التي تستقبل وحي السماء إلي الأرض، وأن رسولها محمداً صلي الله وعليه وسلم هو خاتم النبيين، ورسالته باقية إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال الإمام القرطبي – رحمه الله في تفسيره لقوله تعالي ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ – إشارة إلي القضاء والقدر أي لولا ما سبق في حكمه أنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضي بينهم في الدنيا فادخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم ولكنه سبق من الله الأجل مع علمه بصنعهم فجعل موعدهم القيامة .أهـ (٥)

وقال الشيخ الألوسي رحمه الله – وهي كلمة القضاء بتأخير العذاب إلي الأجل المعلوم علي حسب الحكمة الداعية إلي ذلك .أهـ (٦) والقرآن الكريم يبين لنا أن المشركين قد يفتروا

(١) ظلال القرآن جـ٥ صـ ٣٠٠٢
(٢) سورة يونس الآية ١٩
(٣) سورة هود ١١٠ وفصلت ٤٥
(٤) سورة الشوري الآية ١٤
(٥) تفسير القرطبي جـ ٥ صـ ٣١٦١
(٦) روح المعاني الألوسي جـ صـ ٣٤٢

بهذا الإمهال ويستغلونه في الجدال والمعاندة والاستهزاء من إنذار الرسول صلي الله وعليه وسلم بالعذاب، فيقولون هات ما عندك، وعجل لنا العذاب، ولكن الله الرحيم لا ينفعل لفعلهم، ولا يعجل لطلبهم، فلا يغير ما قاله، ولا يرجع في كلمته، بل جعل لعذابهم وقتا معلوما، وأجلا محدودا، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون قال تعالي ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(١) وقال سبحانه ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(٢)

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله إنه أجاب بأن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالهم لأنه أجله لحكمة ورحمة، فلكونه حكيما لا يكون متغيرا منقلبا، ولكونه رحيما لا يكون عفويا منزعجا، ولولا ذلك الأجل المسمي الذي اقتضته حكمته، وارتضته رحمته. لما كان له رحمة وحكمة، فيكون عفويا متقلبا، فيتأثر باستعجالكم، ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك(٣)

إنها رحمة الله التي سبقت غضبه فلا يعجل عليهم، عسي أن يتغير حالهم، وتزول الغشاوة عن أعينهم، وتتفتح قلوبهم فيتقبلوا الحق ويدخلوا في الإسلام، فتتم عليهم النعمة في الدنيا والآخرة، أو ينقضي هذا الجيل بكفره وقد أخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا.

ثالثا: سبق الكلمة بشقاوة الأشقياء وسعادة السعداء.

قال تعالي: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٤) وقال سبحانه "إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون"(٥).

المقصود بالكلمة هنا أن الله سبحانه وتعالي قد علم أزلا أن هؤلاء سيختارون الكفر علي الإيمان ولن يؤمنوا أبدا فقدر سبحانه وتعالي ذلك وحكم به عليهم.

(١) سورة يونس من الآية ٤٩
(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٣
(٣) مفاتيح الغيب- الفخر الرازى ص٢٥ ص٧١
(٤) سورة يونس الآية٣٣
(٥) سورة يونس الآية٩٦

قال الإمام القرطبي- رحمه الله- "كذلك حقت كلمة ربك" أي حكمه وقضاؤه وعلمه السابق (علي الذين فسقوا) أي خرجوا عن الطاعة وكفروا أو كذبوا (أنهم لا يؤمنون) أي لا يصدقون أ.هـ(١)

وقال الإمام الشوكاني – رحمه الله- في تفسيره لقوله تعالي إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون – والمعني أنه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرون علي الكفر، ويموتون عليه، لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال(٢).

وحكم الله سبحانه وتعالي بذلك حكم حق وقضاؤه قضاء صدق لا يتخلف عن الواقع ولو صب الإنذار في آذانهم صبا، فقد انغمسوا في شهواتهم وسقطوا في ملذاتهم لا يريدون غيرها بديلاً ولا يبغون عنها حولاً، فاختاروا الكفر علي الإيمان، والضلال علي الهدي، وتحققت فيهم كلمة الله- أنهم لا يؤمنون- فأصبحت واقعاً يري في العناد والاستكبار، واللامبالاة والاستهتار، والصد والإنكار، حتى ولو كان في ذلك هلاكهم وبذلك حق عليهم قول الله تعالي﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٣)

قال الشيخ الألوسي- رحمه الله- قوله تعالي "لقد حق القول علي أكثرهم" من سوء اختيارهم وقبح حالهم فإن جعل الله تعالي إياهم. بما أظهر فيهم من الإعجاب العظيم بأنفسهم مستكبرين عن أتباع الرسل عليهم السلام، شامخين برؤوسهم غير خاضعين لما جاؤوا به، وسد أبواب النظر فيما ينفعهم عليهم بالكلية إلا لأنهم سيئوا الإختيار، وقبيحوا الأحوال، قد عشقت ذواتهم ما هم عليه عشقاً ذاتياً، وطلبته طلباً استعدادياً فلم تكن لها قابلية لغيره ولم تلتفت إلي ما سواه. أهـ(٤)

فحكم الله تعالي بذلك ليس معناه أن الله سبحانه وتعالى أجبرهم على هذا الفعل، بل إنه سبحانه وتعالى علم أزلا سوء اختيارهم، وقبح حالهم، وأنهم سيختارون الكفر لعدم استعدادهم للإيمان، ومثل ذلك ولله المثل الأعلى الأستاذ حينما يحكم على تلميذ من تلاميذه بأنه سيرسب فى الامتحان وذلك

(١) تفسير القرطبي جـ٥ صـ٣١٧٩
(٢) تفسير فتح القدير جـ٢ صـ٤٧٤ للإمام الشوكاني وهو محمد بن علي بن محمد عبد الله الشوكاني الصنعاني متوفي سنة ١٢٥٠هـ.
(٣) سورة يس الآية ٧
(٤) روح المعاني للألوسي جـ١١ صـ٣٨٨

لما يراه من تقصير منه وعدم استعداد، فيرسب التلميذ وتتحقق كلمة الأستاذ فيه مع قصر علمه البشرى لكن الله الذي وسع كل شئ علما، يعلم حال هؤلاء، وأنهم يختارون الكفر، ويقدر ذلك ويحكم به، وحكمه لا يتخلف، لأنه حكم إلهي لا يعتريه تغيير، ولذلك نجده سبحانه وتعالى يخبر سيدنا نوحاً عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن قال تعالى ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) ويخبر سيدنا محمداً صلى الله وسلم أن بعضاً من قومه لن يؤمن فلا يتعب نفسه فى إنذارهم قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) فهذا الحكم من الله عز وجل بناء على علمه السابق أزلا بسوء اختيارهم، فيتحقق قدره، وينفذ قضاؤه، وتتحقق كلمة الله فيهم دون تدخل فى الاختيار، أو جبر على الكفر.

والله أعلى وأعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة المباركة حول الآيات القرآنية التي تدور حول كلمة الله في القرآن يمكن لنا أن نخلص بهذه الوصايا أو النصائح :

١- إذا كانت كلمة الله في القرآن بهذه الأوصاف التمام- الصدق- العدل- لا مبدل لها- العليا- وهي تتمثل في الوحي الإلهي بما فيه من وصايا في العقيدة والشريعة والأخلاق ، فهل بعد ذلك يحق لنا أن نبدل هذه الكلمة بكلام المخلوقين (الذي يعتريه النقص وعدم الكمال والتبديل والتغيير) في آدابنا وأخلاقنا وشرائعنا ومناهج التربية لأبنائنا.

٢- إذا كانت هذه الكلمة تمثل طلاقة القدرة، وأنه سبحانه يقول للشئ كن فيكون، فهل بعد ذلك يحق لنا أن نركن إلي قوة غير قوة الله عز وجل، وهل يكون لنا مسوغ في أن نرتمي في أحضان الشرق أو الغرب أو أي مخلوق مهما كانت قوته وقدرته، قال تعالي ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ

(١) سورة هود الآية ٣٦

(٢) سورة البقرة الآية ٦

أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

٣- إذا كان الله سبحانه وتعالي قد وفي بكلمته حينما بشر بعيسي وإسحاق ويحيى ، ألا نأخذ من ذلك دليلا علي أنه سبحانه وتعالي سيوفي لنا حين يقول سأنصر المؤمنين وأذل الكافرين.

٤- إذا كانت كلمته سبحانه وتعالي تمثل القدر السابق، والقضاء المبرم الذي لا يتخلف، ألا يعطينا ذلك الثقة في وعد الله سبحانه وتعالي لنا بالنصر إذا ما حققنا شرطه وهو أن ننصره تعالي.وأن تكون جنداً من جنوده كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ* وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢). فلا داعي للقلق، واليأس والقنوط، فكل شئ عنده بمقدار وكل شئ له أجل محدود فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

(١) سورة العنكبوت الآية ٤١

(٢) سورة الصافات من الآية ١٧١-١٧٣

وبعد

فهذا جهد المقل فإن أصبت فذلك من فضل الله تعالي، فله الحمد والشكر، وإن كانت الأخري فمني ومن الشيطان وحسبي أنني بشر أصيب وأخطئ، والكمال لله وحده، والعصمة لأنبيائه ورسله، والله أسأل أن يوفق المسلمين إلي ما يحبه ويرضاه.

وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم- والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العمادي المتوفى ٩٨٢هـ. طبعة محمد علي صبيح.

٢- التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور المتوفى سنة ١٣٩٣هـ. طبعة الدار التونسية للنشر.

٣- تفسير الشعراوي – للعلامة الشيخ محمد متولي الشعراوي المتوفي بمصر سنة ١٩٩٨م. طبعة أخبار اليوم.

٤- تفسير القرآن العظيم – للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي. المتوفى سنة ٧٧٤. مكتبة التراث الإسلامي – سوريا – حلب.

٥- التفسير الكبير- مفاتيح الغيب – للإمام الفخر الرازي وهو محمد الرازي فخر الدين بن العلامة صابر الدين عمر المشتهر بخطيب الري . المتوفى سنة ٦٠٦هـ. طبعة دار الكتب العلمية.

٦- الجامع لأحكام القرآن. للإمام عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. المتوفى سنة ٦٧١هـ طبعة دار الريان للتراث.

٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن. للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري. المتوفي سنة ٣١٠هـ. طبعة دار المعارف.

٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. للإمام شهاب الدين السيد محمود الألو سي البغدادي. المتوفى ١٢٧٠هـ. ط/ دار الكتب العلمية . بيروت .

٩- زاد المسير في علم التفسير. أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي . المتوفى سنة ٥٩٧هـ ط/ دار المعرفة.

١٠- فتح الباري في شرح صحيح البخاري. للحافظ ابن حجر العسقلاني. طبعة الريان.

١١- فتح القدير – الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير – محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني. المتوفى سنة ١٢٥٠هـ. طبعة عالم الكتب.

١٢- في ظلال القرآن للمفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب

ولد بأسيوط سنة ١٩٠٦ ، وتوفى سنة ١٩٦٦م. طبعة دار الشروق.

١٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي. المتوفى سنة ٥٣٨هـ . طبعة مكتبة مصر.

١٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. للحافظ نور الدين الهيثمي. المتوفى سنة ٨٠٧هـ. طبعة دار الكتاب العربي . بيروت.

١٥- مختار الصحاح. للشيخ محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي. طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

١٦- المستدرك على الصحيحين . لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري. المتوفى سنة ٤٠٥هـ. طبعة دار الكتاب العربي.

١٧- المعجم الكبير. لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. طبعة دار الكتب العلمية.

١٨- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن بحاشية المصحف الشريف. للأستاذ محمد فـؤاد عبد الباقي طبعة دار الحديث القاهرة.

١٩- المعجم الوجيز. مجمع اللغة العربية.

٢٠- المفردات في غريب القرآن. حسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ. طبعة دار الكتب العلمية.

٢١- لسان العرب. لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. المتوفى بالقاهرة سنة ٧١١هـ.

٢٢- النبأ العظيم. د/ محمد عبد الله دراز. المتوفى عام ١٩٨٥م طبعة دار القلم الكويت.

* * *

فهرس الموضوعات